

مقدمة

كتاب آخر عن العلمانية! قد يقول القارئ مستنكرًا، وحقَّ له؛ فأبي مبرر لنشر كتاب آخر في ظل وجود هذا الكم الضخم من الكتابات العربية في الموضوع؟ أجل الكتابات عن العلمانية كثيرة جدًّا، لكن ما يثير الدهشة حقًّا هو أنه على الرغم من وجود كل هذه الكتابات إلا أنها تفتقر إلى شيء أولي وأساسي للغاية، وهو تحديد المقصود من العلمانية بدقة. إذ يبدو لنا أن كلاً من هذه الكتابات يتحدث عن علمانية خاصة به، وليس عن موضوع محدد اسمه العلمانية. وبذلك نصير أمام سؤال بسيط للغاية: ما الذي نتحدث عنه عندما نتحدث عن العلمانية؟

يعود ذلك إلى أسباب كثيرة، من أهمها أن مفهوم «علماني» (ومشتقاته) ينتمي إلى نوع المفاهيم الذي يسميه الفيلسوف البريطاني وليام جالي بـ«المفاهيم المتنازع فيها جوهريًّا»، أي تلك المفاهيم التي لا يمكن، وبحكم طبيعتها، أن يكون لها معانٍ محددة متفق عليها، وبالتالي يتضمن استعمالها، لا محالة، نزاعات لا نهائية بين مستعمليها.

الغرض من هذا الكتاب هو محاولة ضبط مفهوم العلماني ومشتقاته الأساسية، حتى يتضح لنا ذلك الذي نتحدث عنه بالضبط عندما نتحدث عن العلمانية. لدينا هنا أربعة مفاهيم إنجليزية أساسية: (1) the secular، (2) secularization، (3) secularism، (4) secularity. ينبغي ضبط معانيها وتوضيح الفروق الدقيقة بينها. يترجم المفهوم الأول the secular بـ«العلماني»، ومنه النعت علماني. والمفهوم الثاني secularization بـ«العلمنة». أما المفهوم الثالث والرابع فيترجمان عادة إلى العربية بـ لفظ واحد: «العلمانية»، وهو الأمر الذي يطمس فرقًا مهمًّا بين المفهومين، وبالتالي ينبغي ترجمة كل

منهما بلفظ مختلف. ويمكن الاحتفاظ بلفظ علمانية لمفهوم *secularity*، بينما يمكن ترجمة *secularism* بالأيدولوجيا العلمانية أو مذهب العلمانية أو بـ«العلمانية» من باب التخفيف (وهي الترجمة المعتمدة في هذا الكتاب). وستفصل الدراسات المضمنة في هذا الكتاب القول في معنى كل مفهوم من هذه المفاهيم والفروق الدقيقة بين كل منها. لكن يمكننا التمهيد لذلك هنا بإيجاز هذه المعاني والفروق كالتالي:

1. العلماني، وفقا لخوسيه كازانوف، هو «مقولة حديثة مركزية (مقولة لاهوتية-فلسفية، قانونية-سياسية، ثقافية-أنثروبولوجية) الهدف منها هو التنظير لواقع مغاير لـ«الديني» وفهم هذا الواقع وتجربته». وبحسب طلال أسد، «مفهوم العلماني هو اليوم جزء مما يُسمى بالعلمانية» ويشدد على أنه «ينبغي علينا ألا نفكر في «العلماني» بوصفه فضاء تنعتق فيه الحياة البشريّة وعلى نحو تدريجي من سلطة الدين»، وإنما بوصفه أنه «مفهوم يجمع في أحشائه سلوكيات ومعارف وحساسيات معينة موجودة في الحياة الحديثة»، إنه «تنويع من التصورات والممارسات والحساسيات». ويقول تشارلز هيرشكايند، «أفهم العلماني بوصفه مفهوم يُفصل بين كوكبة من المؤسسات والأفكار والتوجهات الوجدانية التي تشكل بعداً مهماً من أبعاد ما نسميه بالحدثة وأشكال المعرفة والممارسة (الدينية وغير الدينية) المُحدّدة لها».
2. يميز كازانوف بين ثلاث دلالات لمصطلح العلمنة (أي سيرورة التعلمن أو تحقق العلمانية)، أو ثلاث فرضيات لنظرية العلمنة: (1) العلمنة بوصفها مميّزة المجالات العلمانية أو قل الدنيوية (الدولة، والاقتصاد الرأسمالي، والعلم في المقام الأول) بنويّاً عن بعضها البعض وعن الدين، وهي ما تُفهم على أنها «تحرير» للعلماني (الدنيوي) من قبضة المؤسسات الإكليريكية والمعايير الدينية، وما يصاحب ذلك من مميّزة وتخصيص للدين ضمن مجال آخر حادث: المجال الديني. وفي هذا الصدد، يكون كل من الديني والعلماني بنيتان تشاركتا وتبادلتا تشكيل بعضهما البعض وظهرتا لأول مرة

- مع الحداثة؛ (2) العلمنة بوصفها اضمحلال المعتقدات والممارسات الدينية من المجتمعات الحديثة، وهي ما تُفترض أنها سيرورة تقدم بشري كونية، وهذا هو الاستخدام الأحدث ولكن الأكثر انتشارًا للمصطلح ضمن النقاشات الأكاديمية الراهنة حول العلمنة، ولكنه، وبالرغم من ذلك، لا يزال غير معتمد في معظم معاجم اللغات الأوروبية. (3) العلمنة بوصفها خصخصة الدين (أي تهيمشه ونفيه من المجال العام)، وهي ما تُفهم على أنها توجه تاريخي حديث عام، وفي الوقت عينه، على أنها شرط معياري، بل في الواقع على أنها شرط قبلي، للسياسات الديمقراطية الليبرالية الحديثة.
3. وفقاً لكازانوف، تقال العلمانية على معنيين: (1) هي أداة للحكم، أي فصل المؤسسات الدينية عن المؤسسات السياسية؛ (2) هي أيديولوجيا، وهذه الأيديولوجيا على نوعين: فلسفات تاريخية تتضمن نظرية للدين، ونظريات سياسية تتضمن رؤية لماهية الدين ووظيفته. ويحدده عقيل بلجرامي مضمونها في مبادئ ثلاث: (1) هي موقف يُتخذ حيال الدين؛ (2) وهذا الموقف يكون ضمن نطاق الحكم السياسي تحديداً؛ (3) وهي ليست غاية بحد ذاتها وإنما وسيلة يُرجى منها تعزيز خيارات اجتماعية وسياسية بعينها. العلمانية إذن هي مذهب سياسي، أيديولوجيا سياسية. ويحاجج طلال أسد عن أن العلمانية لا تشدد، ببساطة، على أن المعتقدات والممارسات الدينية ينبغي أن تُحصر في فضاء خاص بحيث لا يعود بوسعها، أي المعتقدات والممارسات الدينية، أن تهدد الاستقرار السياسي أو حريات المواطنين الذين «يفكرون على نحو حر». وإنما هي تنبني على تصور بعينه عن العالم («الطبيعي» و«الاجتماعي») وعن المشاكل التي يولدها هذا العالم.
4. مفهوم العلمانية أقل شهرة من أخويه: العلمنة والعلمانية اللذين يهيمنان على كل النقاشات الراهنة، بينما قلما يُتناول مفهوم العلمانية. وعمامة، يحيل مفهوم العلمانية على نمط العيش العلماني، على كل أبعاد الحياة

الثقافية والرمزية والمؤسسية التي تُعتبر غير دينية في مقابل تلك التي تُعتبر دينية. وعليه، فإن العلمانية أوسع من العلمانية، فالأخيرة أيديولوجيا سياسية ومشروع سياسي، بينما الأولى تتعلق بشكل الحياة الحديث ككل. ويفرق تشارلز تايلور بين ثلاث معانٍ للعلمانية: الأول هو تحول الدين إلى مسألة شخصية، وإخراجه عن النطاقات الاجتماعية المختلفة. والثاني هو اضمحلال المعتقدات والممارسات الدينية، والثالث هو غدو الإيمان مجرد خيار ضمن خيارات أخرى.

يتضمن هذا الكتاب مجموعة من الدراسات المترجمة لنخبة من أهم المفكرين المهتمين بمسألة العلمانية. ففي دراسة «العلمانية الغربية»، يقدم لنا الفيلسوف والمنظر الاجتماعي المرموق تشارلز تايلور بعض أفكاره الأساسية عن الموضوع، والتي فصل فيها القول في كتابه ذائع الصيت عصر علماني. وفي دراسة «العلماني والعلمانيات» يقدم لنا عالم اجتماع الأديان خوسيه كازانوفاً تحليلاً مفهوماً مفصلاً لمفاهيم العلماني والعلمنة والعلمانية مع التركيز على المفهوم الأخير. بينما يقدم في دراسته «ما بعد العلماني: سجال مع هابرماس»، تحليلاً لمفهوم العلمانية ونقداً لمفهوم ما بعد العلماني عند الفيلسوف الألماني الكبير يورجن هابرماس. وفي دراسته «مقارعة العلمانية: العلمانية والإسلام في أعمال طلال أسد» يستعرض سيندر بانجستاد وينقد مفهوم العلمانية عند الأنثروبولوجي المرموق طلال أسد. وفي دراسة «العلمانية: مضمونها وسياقها»، يقدم لنا عقيل بلجرامي، مشتبهاً مع أفكار تشارلز تايلور، تحليلاً مفصلاً لمفهوم العلمانية، كمذهب سياسي، ولأسس ومبررات تبنيتها وتطبيقها. وفي دراسته «تنويعات التجربة العلمانية»، يقدم جريجوري ستارت نقداً قوياً لمفهوم العلماني ومشتقاته، ويحاجج عن أنه مفهوم معياري أو قيمي، متنازع فيه جوهرياً، وبالتالي قيمته التحليلية ضعيفة أو معدومة. وفي دراستها «الإسلاموية والعلمنة والعلمانية»، تطبق كاتيرينا دالكاورا أفكار كازانوفاً وتايلور على الحركات الإسلامية، وتبين مدى تغلغل العلمانية في بنية هذه الحركات وممارستها.

وختامًا، أرجو أن يسهم هذا الكتاب في توضيح هذه المفاهيم الإشكالية
للغاية، بضبط معانيها وبيان الفروق الدقيقة بينها. وجزيل الشكر لمركز نماء للبحوث
والدراسات على عنايته بنشر هذا الكتاب.

المترجم